كأن الموجود فى الملك يتشبث به جداً.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا [1] مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾ [هود]

وفى نفس السورة يأتى الاستثناء، فيقول الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [هود]

وسنأتى لها بالخواطر من بعد ذلك.

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - فى المقابل لمن نُزِعَتْ منه الرحمة واليئوس الكفور:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ [2] بَعْدَ ضَرَّاءَ [3] مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ [4] عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ [5] فَخُورٌ [6] ﴿١٠﴾ ﴾

وهنا نجد الضراء هى الموجودة، والنعماء هى التى تطرأ، عكس الحالة الأولى، حيث كانت الرحمة - من خير ويسر - هى الموجودة.

---

(١) المقصود الرحمة التى أنعم الله بها عليه.

(٢) النعماء: أثر النعمة على بدن وحياة الإنسان، فتكون ملازمة له.

(٣) الضراء: أثر الفقر والشدة. وقال تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ..﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ..﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنعام].
ومسته: أصابته. [تفسير الجلالين ومختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

(٤) السيئات: المصائب والشدائد والعسر.

(٥) فرح: صيغة مبالغة من الفرح، وهو البطر بالنعمة [كلمات القرآن].

(٦) فخور: صيغة مبالغة من الفخر، أى: كثير الفخر بما نال من الناس، وفخور على الناس بما أوتى، وغير شاكر لله تعالى على نعمه. [مختصر تفسير الطبرى، وتفسير الجلالين] بتصرف.

فالنزع في الأولى طرأ على رحمة موجودة ، والنعماء طرأت على ضرَّاء موجودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضراء وضر ؛ فالضر هو الشيء الذى يؤلم النفس ، والنعمة هي الشيء الذى تتنعم به النفس .

لكن التنعُّم والألم قد يكونان في النفس ، ولا ينضح أي منهما على الإنسان ، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها «نعماء» ، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال : «ضراء» .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي .. ﴿١٠﴾ ﴾ [هود]

ولا يفطن من يقول ذلك إلى المُذْهِب الذى أذهبَ السيئات ؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها .

ولو كان القائل مؤمناً لقال : رفع الله عنى السيئات .

لكنه غير مؤمن ؛ ولذلك يغرق في فرح كاذب وفخر لا أساس له .

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ .. إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [هود]

وكأن الفرح بالنعمة أذهله [1] عن المنعم ، وعمن نزع منه السيئة .

وأما الفخر ، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب [2] ، وقد تجد

---

(١) الذهول عن الشيء : أن يشغلك عنه أمر آخر . ذهل عن الشيء : تركه على عمد أو غفل عنه أو نسيه لشغل . [اللسان ، مادة : ذهل] .

(٢) مناقب : جمع منقبة ، وهي كرم الفعل . وكريم المناقب : حَسَن الخلق كريم الفعال . [اللسان] بتصرف .

إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر.

ونحن نعلم أن التميز لفرد ما يوجد في المجتمع، ولكن أدب الإيمان يفرض ألا يفخر الإنسان بالتميز.

ولذلك نجد النبي ﷺ يقول: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[١].

وفي إحدى المعارك نجده ﷺ يقول:

«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب[٢]».

وقد اضطر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك؛ لأن الكافرين في تلك المعركة ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب، لكنه ﷺ بشجاعته أعلن:

«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[٣] وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفي مواجهتهم.

ونحن نجد المتصارعين أو المتنافسين، واحدهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٤٧٦) من حديث أبي هريرة. وعند الحاكم في مستدركه (٢/ ٦٠٤) وصححه من حديث جابر بن عبد الله بلفظ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» دون ذكر يوم القيامة.

(٢) نسب رسول الله ﷺ نفسه إلى جده عبد المطلب، لا إلى أبيه عبد الله، فقد كان عبد المطلب مشهوراً شهرة ظاهرة شائعة، وكان سيد أهل مكة، وكان مشتهراً عندهم أن عبد المطلب بُشّر بالنبي ﷺ، وأنه سيظهر، وسيكون شأنه عظيماً، فأراد النبي ﷺ تذكيرهم بذلك وتنبيههم بأنه ﷺ لا بد من ظهوره على الأعداء، وأن العاقبة له لتقوى نفوسهم. نقله النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٣٦٠).

(٣) وذلك أن رجلاً سأل البراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، وكانت هوازن يومئذ رماة، وإنّا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد، والبخاري في صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب.

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التى يتفاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه ، ولردَّ كل شىء إلى الواهب .

ومثال ذلك فى القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ [1] عَنْ أَمْرِى .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

وهذا سلوك العابد المتواضع .

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صوره القرآن فى قول قارون :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ [2] عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨) ﴾ [القصص]

وكان مصيره هو القول الحق :

﴿ فَخَسَفْنَا [3] بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص]

ولذلك قلنا : إنك تحصِّن كل نعمة عندك بقولك عند رؤيتها : «بسم الله ما شاء الله » ؛ لتتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقى عين الواهب حارسة للنعمة التى عندك .

---

(١) المقصود ما فعله الخضر عليه السلام من : خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار الذى كان سينهار .

(٢) أوتيته : أى : اكتسبته . يقصد المال الذى رزقه الله إياه ، ولكن قارون ادَّعى أن علمه هو الذى جلب له المال ، فكفر بنعمة الله عليه ، فاستحق عقاب الله .

(٣) الخسف : خسف الله الأرض : جعلها تهبط وتغور يقول الحق : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] وخسف القمر : نقص نوره ، وخسوف الشمس يقع فى أواخر الشهر العربى فى أيام المحاق ، وسببه توسط القمر بين الأرض والشمس ، فيحجب القمر الشمس ، فإن كان الحجب كلياً كان خسوفاً ، وإن كان جزئياً كان كسوفاً . وجاء فى اللسان الخسف : سؤوخ الأرض بما عليها أى : ابتلاعها ما فوقها . وخسف الله به الأرض أى : أغابه فيها . القاموس القويم باختصار .

أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك.

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع الفرح المنبعث عن انشراح الصدر والسرور بنعمة الله بل طلبه منا فى قوله سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ..(٥٨)﴾ [يونس]

ولكن الحق سبحانه يطلب من المؤمن أن لا يكون الفرح المنبعث لأتفه الأسباب، والملازم له، وإلا كان من الفرحين الذين ذمهم الله تعالى[1].

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾

وكلمة ﴿صَبَرُوا﴾[2] هنا موافقة للأمرين اللذين سبقا فى الآيتين السابقتين، فهناك نزع الرحمة، وكذلك هناك «نعماء» من بعد «ضراء»، وكلا الموقفين يحتاج للصبر؛ لأن كلاً منا مقدور للأحداث التى تمر به، وعليه أن يصبر لملحظية حكمة القادر سبحانه.

وبدأ الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بالاستثناء، فقال جل وعلا:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (١١)﴾ [هود]

---

(١) فقال عن قوم موسى أنهم قالوا لقارون: ﴿.. لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص] أى: الأشرين البطرين الذين لا يعترفون بنعمة الله عليهم. وقال تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد].

(٢) والذين صبروا ماضياً، وصابروا حالاً ومستقبلاً هم أهل الفلاح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل - كل البشر - ينطبق عليهم الحكم الصادر في الآيتين السابقتين ، حكم باليأس والكفر ، أو الفرح والفخر دون تذكُّر واهب النعم سبحانه.

ولكن هذا الاستثناء قد جاء ليُطمئن الذين صبروا على ما قد يصيبهم في أمر الدعوة ، أو ما يصيبهم في ذواتهم ؛ لا من الكافرين ؛ لكن بتقدير العزيز العليم .

أو أنهم صبروا عن عمل إخوانهم المؤمنين.

إذن: فالصبر معناه حدُّ النفس بحيث ترضى عن أمر مكروه نزل بها [1] . والأمر المكروه له مصادر عدة ، منها:

* أمر لا غريم [2] لك فيه كالمرض مثلاً .

* أو أن يكون لك غريم في الأمر ؛ كأن يُسرق منك متاع ، أو يُعتدى عليك ، وفي هذه الحالة تنشغل برغبة الانتقام ، وتتأجج نفسك برغبة النيل من هذا الغريم ، أكثر مما تتأجج في حالة عدم وجود الغريم ، فحين يمرض الإنسان فلا غريم له.

وفي حالة الرغبة في الانتقام فالصبر يختلف عن الصبر في حالة عدم وجود الغريم.

ولذلك عرض الحق سبحانه وتعالى لتأتِّي الصبر حسب هذه المراحل ، فسيدنا لقمان يقول لابنه:

---

(١) ويكون الصبر مطلوباً أيضاً عند امتناع النعمة امتحاناً لإيمان المؤمن فعن أبي سعيد الخدري أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبَّر يصبِّره الله ، وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٧٠) ومسلم في صحيحه (١٠٥٣) كتاب الزكاة.

(٢) الغريم: الدائن، والمدين. والجمع: غرماء. والمراد بالغريم هنا: الخصم أو العدو. [اللسان، والمعجم الوسيط] بتصرف.

﴿ .. وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[1] ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

وفى هذه الآية «لام» التوكيد لتؤكد أن هذا الأمر يحتاج إلى عزم قوى ؛ لأن لى فيها غريماً يثير غضبى .

فساعة أرى من ضربنى أو أهاننى أو سرقنى أو أساء إلىَّ إساءة بالغة ، فالأمر هنا يحتاج صبراً وقوة وعزيمة .

أما فى الحالة الأولى - حالة عدم وجود غريم - فالحق سبحانه يكتفى فقط بالقول الكريم :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

ولكنه سبحانه أضاف فى الآية الأخرى «اللام» لتأكيد العزم ، وليضيف سبحانه فى حالة وجود غريم طلب الغفران ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

وهكذا نجد المستثنى ، وهم الصابرون على ألوانهم المختلفة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [هود]

وما دام هنا صبر ، فالصبر لا يكون إلا على إيذاء . ولكن إياك أن يكون الإيذاء من خصمك فى الإيمان ، أو من خصمك فى ما دون الإيمان ،

---

(١) والصبر : إما صبر على المأمورات أو صبر على المحذورات ، أو صبر على المقدرات ، فمن توافرت فيه هذه المقامات كان من أهل العزم . وعزم الأمور معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها . [تفسير الجلالين] .

صارفاً لك عن نشاطك فى طاعة الله سبحانه ؛ لأن الصبر لا يعنى أن تكبت غضبك وتعذب نفسك بهذا الكبت بما يصرفك عن مهامك فى الحياة ، بل يسمح لك الحق سبحانه أن تتخلص من غلِّك وحقدك ، بمعايشة الإيمان الذى يُخفف من غَلْواء الغضب.

ولكسر حدة الغل أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدى على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل فى حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقاتك إلى أداء عملك.

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل فيقول عز وجل:

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة]

ولكن هناك القادر على التحكم فى نفسه ، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ [(١)] .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ : أن الغيظ موجود ، لكن صاحبه لا يتحرك بنزوع انتقامى ، مثلما تقول : «كظمت القِرْبة» لأن حامل القربة لو لم يكظم الماء فيها ، لتفلَّت الماء منها ، أى : أنه يَحبس الماء فيها.

وكظم الغيظ درجة ومنزلة ، قد لا تكون إيجابية ؛ لأن الغيظ ما زال موجوداً ؛ ولذلك تأتى مرحلة أرقى ، وتتمثل فى قول الحق سبحانه:

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

---

(١) الكاظمين الغيظ : الحابسين غيظهم فى قلوبهم . [كلمات القرآن].
وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «من كظم غيظاً ، وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله سبحانه وتعالى على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٤٠) وأبو داود فى سننه (٤٧٧٧) والترمذى فى سننه (٢٠٢١ ، ٢٤٩٣) وقال : حسن غريب.

أي: أن تُخرج الغيظ من قلبك وتتسامح.

إذن: فأنت هنا أمام مراحل ثلاث:

أن تردَّ الاعتداء عليك بمثله، والمثليَّة في رد الاعتداء أمر لا يمكن أن يتحقق، فمن صفعك صفعة، كيف تستطيع أن تضبط كمية الألم في الصفعة التي تردها إليه؟

إن المتحكم في ردِّ الاعتداء هو الغضب، والغضب لا يقيس الاعتداء بمثله، فلا يتحقق العدل المطلوب؛ لهذا يكون الصبر خيراً مصداقاً لقوله تعالى:

﴿.. وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

فإن أزدتَ من قوة صفعتك تكون معتدياً.

ولعلنا نذكر مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير، وبطلها هذا التاجر اليهودي الذي أقرض رجلاً مالاً، وكان صَكُّ القرض يفرض أن يقتطع اليهودي رطلاً[1] من لحم المقترض إن تأخر في السداد.

وتأخَّر المقترض في السداد، وأراد المرابي اليهودي أن يقتطع رطلاً من لحم المقترض، وعُرِض الأمر على القاضي، وكان القاضي رجلاً حكيماً، وأراد أن يصدر حكَماً يتلمس فيه العدالة، فقال القاضي: لا مانع أن تأخذ رطلاً من لحم الرجل؛ هات السكين، واقطع رطلاً واحداً بلا زيادة أو نقصان؛ لأننا سنأخذ مقابل تلك الزيادة من لحمك أنت وبنفس السكين، وكذلك إن قطعت من اللحم ما يقل عن الرطل، فسنقطع الناقص لك من لحمك أنت عقاباً لك.

---

(١) الرطل: معيار يوزن به أو يكال، يختلف باختلاف البلاد، وهو في مصر اثنتا عشرة أوقية، والأوقية اثنا عشر درهماً. والجمع: أرطال. [المعجم الوسيط].

وتردَّد المرابى اليهودى ؛ لأن الجزار - أيَّ جزار - لا يمكن أن يضبط يده ليقطع رطلاً مكتمل الوزن ، بل يقطع أحياناً ما يزيد عن الوزن المطلوب ، ويقطع أحياناً ما يقل عن الوزن المطلوب ، ثم يكمل أو ينقص الوزن حسب كل حالة.

وانسحب المرابى اليهودى وتنازل عن دعواه ، والذى دفعه إلى ذلك هو عدم قدرته على أخذ المثل ، فلو كان قد ارتقى قليلاً فى مشاعره لما وصل إلى هذا الحكم.

والحق سبحانه وتعالى يحضنا [1] على أن نرد العدوان بمثله ، وإن أردنا الارتقاء فلنكظم الغيظ ، وإن أردنا الارتقاء أكثر فلنخرج الغيظ من القلب ولنكن من العافين عن الناس [2] ؛ لننال محبة الله تعالى؛ لأنه سبحانه يقول:

﴿ ..وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾
[آل عمران]

وفى هذا يرتقى المؤمن بمنهج الله سبحانه ، فيجعل المعتدَى عليه هو الذى يُحسن.

وحين تريد أن تفسر حب الله سبحانه للمحسنين فلسفياً أو منطقيًا أو اقتصاديًا ، ستجد القضية صحيحة ، والله سبحانه وتعالى يقول:

---

(١) الحض : الحث والتشجيع على فعل شيء. [اللسان] بتصرف ، وقال تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)﴾ [الحاقة].

(٢) عن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : «من سره أن يشرف له البنيان ، وتُرفع له الدرجات ، فليعفُ عمن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه» أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٩٥) عن أبى بن كعب وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » قال الذهبى : « فيه أبو أمية ضعفه الدارقطنى وإسحاق لم يدرك عبادة ».

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا [1] أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ [2] .. (٢٢) ﴾ [النور]

فإن أساء [3] أخوك إليك سيئة ، فإما أن ترد بالمثل ، أو تكظم الغيظ أو ترقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟

إذن : فما دُمْت تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك فى حقك ؟

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [النور]

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى ، وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المسيء والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة .

---

(١) صفح عن رجل : أعرض عنه أو عفا عنه ولم يؤاخذه بذنبه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن] . وقال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر] . [اللسان] بتصرف .

(٢) تمام الآية : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور] .

وقد نزلت هذه الآية فى شأن أبى بكر الصديق الذى حلف أن لا يعطى ابن خالته مسطح بن أثاثة ما كان يعطيه من قبل من النفقة بسبب ما تكلم به فى حق عائشة مع من تكلم ، وهو ما يسمى بحادثة الإفك . فأنزل سبحانه الآية ، فقال أبو بكر : والله إنى أحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كانت عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً . راجع تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٥) وأسباب النزول للواحدى (ص١٨٥) ط . المكتبة الثقافية .

(٣) أساء إساءة : فعل السوء ضد أحسن ، وأساء العمل لم يحسنه ، والمسيء اسم فاعل من أساء ، والسيء القبيح ، والمنكر ، والسيئة : مؤنث السيء بمعنى القبيح . والسَّوءة : ما يقبح إظهاره وينبغى ستره « القاموس القويم » باختصار .

ولو اقتصصتَ أنت ممن أساء إليك ، فقصاصك على قدر قوتك ، أما إن تركته إلى قدرة الله تعالى، فهذا أصعب وأشق؛ لأنك تركته إلى قوة القوى.

وهكذا ينال العافى عن المسيء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله - سبحانه وتعالى - فى جانبه .

وهناك من يقول: كيف يأمر الدين الناس بأن يحسنوا لمن أساء إليهم ؟ ويعلل ذلك بأنه أمر ضد النفس.

ونقول : إن الإحسان إلى المسيء هو مرحلة ارتقاء ، وليست تكليفاً [١] أصيلاً ؛ لأن الحق سبحانه قد أباح أن نرد العدوان بمثله ، ثم حثَّ المؤمن على أن يكظم غيظه ، أو يرتقى إلى العفو وأن يصل إلى الإحسان ، وكل هذه ارتقاءات اليقين بالله سبحانه وتعالى .

وانظر إلى نفسك - ولله المثل الأعلى ومنزَّه سبحانه عن كل مَثَلٍ - إنْ أردت أن تطبق الأمر على ذاتك حين تجد ولداً من أولادك قد اعتدىَ على أخيه ، فقلبك وعواطفك وتلطفاتك تكون مع المعتدَى عليه.

ومن يقول: كيف يكلّفنى الشرع بأن أحسن إلى من أساء إلىَّ ؟

نقول له: تذكَّرْ قول الحسن البصرى رضى الله عنه [٢] : «أفلا أحْسِنُ لمن جعل الله فى جانبى» .

ولو طبَّق العالم هذه القاعدة بيقينٍ وإخلاصٍ لصارت الحياة على الأرض جنة معجَّلة ، التسامح ، قوامها القربُ ، ومنهجها الحب .

(١) لأن التكليف إلزام ، والعفو من الفضل ، وفى التعامل بالفضل ارتقاء .

(٢) هو: الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد، تابعى، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة فى زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء النساك. وُلد بالمدينة ٢١ هـ ، وشبَّ فى كنف على بن أبى طالب، كان يدخل على الولاة يأمرهم وينهاهم ، سكن البصرة وتوفى بها عام ١١٠ هـ عن ٩٠ عاماً.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾ [هود]

وإن تساءل أحد: ولماذا ينالون المغفرة؟

نقول: لأنهم صبروا وغفروا؛ لذلك يهديهم الله تعالى مغفرة من عنده، لأنه صبر على الإساءة، وغفر لمن أساء، فلا بد أن يُثيبه الله تعالى، لا بالمغفرة فقط، ولكن بالأجر الكبير أيضاً.[1]

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ[2] (١٢) ﴾

وهنا نجد الحق سبحانه يأتى بصيغة الاستفهام فى قوله تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ.. (١٢) ﴾ [هود]

وهو استفهام فى معرض النهى.

ولله المثل الأعلى - أنت قد تقول لابنك لتحثَّه على الاجتهاد: «لعلَّك

---

(١) ومغفرة الله فى مقابل صبر العبد وغفرانه لإساءة المسىء محدودة بحدود طاقة البشر، أما غفران الله ففيه شمول الكريم وعفو الحكيم؛ لأن عفوه مصحوب بالأجر، والأجر كبير من أكبر وهو الله سبحانه.

(٢) وكيل: قائم به حافظ له[كلمات القرآن]. والوكيل: الحافظ الأمين والناصر المعين. قال تعالى: ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿ .. قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) ﴾ [الأنعام] أى: حافظ.

سُررت من فشل فلان» وفَحْوَى [1] هذا الخطاب ، استفهام فى معرض النهى ، وهو استفهام يحمل الرجاء .

وهنا تجد أن الراجى هو ربك - سبحانه وتعالى- الذى أرسلك بالدعوة .

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه مُبيِّناً : لا يضيق صدرك يا رسول الله من هؤلاء المتعنتين ، الذين يريدون أن يخرجوك عن مقامك الذى تلحُّ دائمًا فى التأكيد عليه ، فأنت تؤكد لهم دائماً أنك بشرٌ [2] ، وكان المفروض فيهم أن تكون مطلوباتهم منك على مقدار ماأقررت على نفسك ، فأنت لم تَقُلْ أبداً عن نفسك إنك إله ، ليطلبوا منك آيات تُخالف النواميس [3] ، بل أنت مُبلِّغ عن الله تعالى .

وإياك أن يضيق صدرك فلا تُبلغهم شيئاً مما أنزلَ إليك ؛ لأن البلاغَ هو الحُجَّة عليهم ، فلو ضاق صدرُك منهم ، وأنقصتَ البلاغ الموكَّل إليك ؛ لأنهم كلما أبلغوا بآية كذَّبوها ، فاعلمْ أن الله سبحانه وتعالى سوف يزيد عقابهم بقدر ما كذَّبوا .

---

(١) فحوى القول : مضمونه ومرماه الذى يتجه إليه القائل . والجمع : فحاوٍ ، وفحاوى . [المعجم الوسيط] .

(٢) أكد رسول الله ﷺ على هذا المعنى فى أحاديث شريفة كثيرة جداً :

- منها حديث رافع بن خديج قال : قدم نبى الله ﷺ بالمدينة ، وهم يأبرون النخل ، يقولون يلقحون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه . قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً فتركوه ، فنفضت . قال : فذكروا ذلك له ، فقال : «إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى ، فإنما أنا بشر » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) كتاب الفضائل .

- وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « إنما أنا بشر ، أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأيما أحد دعوت عليه من أمتى بدعوة ليس لها بأهل ، أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقرِّبه بها منه يوم القيامة » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٣) .

(٣) النواميس : القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون .

وكلمة «ضائق»[1] اسم فاعل ، ويعنى أن الموصوف به لن يظل محتفظاً بهذه الصفة لتكون لازمة له ، ولكنها تعبِّر عن مرحلة من المراحل ، مثلما نقول: «فلان تَاجر» أى : أنه قادر على القيام بأعمال النجارة مرَّة واحدة - أو قليلاً - ولا يحترف هذا العمل .

وكذلك كلمة «ضائق» وهى تعبِّر فى مرحلة لا أكثر منْ فَرْط ما قابلوا الرسول ﷺ من إنكار ، وما طالبوا به من أشياء تخرج عَن نطاق إنسانيته ، فقد طالبوا هنا أن ينزل عليه كَنزٌ .

وقد جاء الحق سبحانه بذكر مسألة الكنز ؛ ليدلنا على مدى ماعندهم من قيم الحياة ، فقيمة القيم عندهم تركَّزتْ فى المال ؛ ولذلك تمنَّوا لو أن هذا القرآن قد نزل على واحد من الأثرياء ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[2] (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فلم يكن اعتراضهم على القرآن ، بل على مَنْ نزل عليه القرآن . وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، طلبوا أن ينزل إليه كَنزٌ ، وقد ظنوا أن الثراء سيلهيه هو ومَنْ معه عن الدعوة إلى الله تعالى

(١) الضيق (بالكسر والفتح للضاد وسكون الباء) ضد السَّعَة ، فى الماديات والمعنويات .
واسم الفاعل ضائق ، قال تعالى : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ .. (١٢) ﴾ [هود] وقوله : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. (٧٧) ﴾ [هود] . أى : وجد ضيقاً فى صدره ، ومنه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) ﴾ [الحجر] ، وقوله : ﴿ ..وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾ [النحل] وقرئ بفتح الضاد وبكسرها . والمعنى : ولا يضيق صدرك بسبب مكرهم . (القاموس القويم باختصار) .

(٢) المراد بالقريتين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود . فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد يا ليل . قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

ونسوا أنهم قد عرضوا الثروة عليه من قبل [(١)] .

وهكذا وضح لمن عرض عليه هذا الأمر أن مسألة الكنز لا تشغله ﷺ .

والكَنْزُ [(٢)] - لغوياً - هو الشيء المجتمع ، فإن كانت الماشية - مثلاً - مليئة باللحم يقال لها : « مُكْتَنِزَةٌ لحماً » ولكن كلمة « الكنز » أطلقت على الشيء الذي هو ثمن لأي شيء ، وهو الذهب .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. (٣٤) ﴾ [التوبة]

---

(١) ذلك أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قُم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة (الشرف) في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلَّكَ تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع . قال : يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا . . . حتى إذا فرغ عتبة ، قال له ﷺ : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني . قال : أفعل ، فقال : ﴿ حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [فصلت] . ثم مضى ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه . فلما عاد إلى قومه قال لهم : خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم ، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه مُلككم ، وعزّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . [من سيرة النبي لابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ - بتصرف] .

(٢) كنز المال يكنزه كنزاً : جمعه وادَّخره . قال تعالى : ﴿ .. هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة] وقال تعالى : ﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾ [التوبة] والضمير راجع إلى الفضة لقربها في الذكر ، ولأنها أقل قيمة ، فمَنْ يبخل بها يبخل بالذهب من باب أولى . [القاموس القويم] .

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين الرزق المباشر والرزق غير المباشر ، فالرزق الغير مباشر هو ما تنتفع به ، طعاماً أو شراباً ، وهناك شيء يأتي لك بالرزق الغير مباشر ؛ لكنه لا يُغني عن الرزق المباشر المستمر (١) .

فلو أن إنساناً في صحراء ومعه قناطير (٢) مقنطرة من الذهب ، ولا يجد طعاماً ولا شربة ماء ، ماذا يفعل له الذهب ؟ ولو عرض عليه إنسانٌ آخر رغيف خبز وشربة ماء مقابل كل ما يملك من ذهب لوافق على الفور . وهنا لا يكون التقييم أن قنطار الذهب مقابل الرغيف وشربة الماء ، ولكن قنطار الذهب هنا مقابل استمرار الحياة وضرورة الحاجة .

إذن : معنى كلمة "كنز" هو نقد من الذهب والفضة مجتمعاً ، ويقال عنه بالعامية عندنا في مصر : «نقود تحت البلاطة» ، ولكن إذا أدّى صاحب هذا النقد حقَّ الله تعالى فيما ادَّخره ، لا يُعتبر كَنْزاً ؛ لأن الشرط في الكَنْز أن يكون مَخفياً ، والزكاة التي تُخرَج من المال المدَّخر توضح للمجتمع أن صاحب المال لا يُخفي ما عنده .

ولذلك لا يُسمَّى الكَنْزُ إلاَّ للشيء المجتمع وممنوع منه حق الله تعالى ، فإنْ أدّى حقُّ الله سبحانه فقد رُفعَتْ عنه الكَنزية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾ [التوبة]

---

(١) الرزق المباشر ما تقتضى به الحوائج بسيولة الاستمرار ، والغير مباشر تقتضى به الحوائج بصعوبة الحاجة والضرورة .

(٢) قناطير : جمع قنطار ، وهو معيار مختلف المقدار عند الناس ، وهو بمصر في زماننا مائة رطل ، وهو ٤٤,٩٢٨ من الكيلو جرامات . وقد يقصد بالقنطار : المال الكثير . [المعجم الوسيط] .

ومن هذا القول الكريم نفهم أن مَنْ يملك مالاً ويؤدِّى حقَّ الله فيه ، لا يُعتبر كَنْزاً[1] ، وحين تُنقص الزكاةُ المالَ فى ظاهر الأمر ، فهى تدفع الإنسان إلى أن يُحْسن استثمار هذا المال ؛حتى لا يفقده على مدار أربعين عاماً ، بحكم أن زكاة المال هى اثنان ونصف فى المائة ؛ولذلك يحاول صاحب المال أن يُثمِّره ، وهو بذلك يُهيِّىء فرصة لغير واجدٍ وقادرٍ لأن يعمل ، وبذلك تقلُّ البطالة .

وقد تكون أنت صاحب المال ؛ لكنك لا تفهم أسرار التجارة والصناعة ، فتشارك مَنْ يفهم فى التجارة أو الصناعة ، وبذلك تفتح أبواب فرص عمل لمن لا عمل له وقادر على إدارة العمل .

هذه هى إرادة الحق سبحانه وتعالى فى أن يجعل من تكامل المواهب نماءً وزيادة ، تكامل مواهب الوَجْد - النقود - ومواهب الجَهْد ، وبين الوجد والجهد تنشأ الحركة ، ويتفق صاحب المال مع صاحب الجهد على نسب الربح حسب العرض والطلب ؛ لأن كل تبادل إنما يخضع لهذا الأمر - العرض والطلب - لأن مثل هذا التعاون بين الواجد والقادر ينتج سلعة ، والسلعة لا هوًى لها ، ولكن من يملك السلعة ومن يشترى السلعة لهما هوى ، فمالكُ السلعة يرغب فى البيع بأعلى سعر ، ومن يرغب فى شراء السلعة يريدها بأقل سعر ، لكن السلعة نفسها لا هوى لها .

وما دام العرض والطلب هو الذى يتحكَّم فى السلع ، فهذا توازن

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤ / ٣٠٥١) : « اختلف العلماء فى المال الذى أديت زكاته هل يُسمَّى كنزاً أم لا ؟ فقال قوم : نعم . ورواه أبو الضحى عن جعدة بن هبيرة عن على رضى الله عنه ، قال على : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما كثر فهو كنز وإن أدِّيت زكاته ، ولا يصح .
وقال ابن عمر : ما أدِّى زكاته فليس بكنز ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل ما لم تُؤدَّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . ومثله عن جابر ، وهو الصحيح » .

في ميزان الاقتصاد .[1]

وعلى سبيل المثال : إن عُرِضت اللحوم بسعر مرتفع ، فكبرياء الذات في النفس البشرية تدفع غير القادر لأن يقول : إن تناول اللحم يرهقني صحياً . ويتجه إلى الأطعمة الأخرى التي يقدر على ثمنها ؛ لأن السلعة هي التي تتحكم ، أما إذا تدخل أحدٌ في تسعير السلع ، بأن اكتنز المال ، ولم يخرجه للسوق لاستثماره ، حينئذ تختفي قدرة الحركة لصاحب المال ، ولا يجد صاحب الموهبة مجالاً لإتقان صنعته .

وقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية :

﴿ لَوْلا [2] أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ .. (١٢) ﴾ [هود]

فكلمة «لولا» - كما نعلم - للتمني ، وهم تمنوا الكنز أولاً ، ثم طلبوا مجيء مَلَك ، وكيف ينزل المَلَك ؟ أينزل على خِلقته أم على غير خِلقته بأن يتجسد على هيئة رجل ؟

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً .. (٩) ﴾ [الأنعام]

---

(١) قصد في أمره يقصد كضرب قصداً : اعتدل فيه وسلك مسلكاً وسطاً ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] أي : اعتدل وتوسط فيه وقال : ﴿ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] أي : معتدل غير منحرف يقول الحق : ﴿ .. مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ (٦٦) ﴾ [المائدة] والاقتصاد الآن أصبح علماً له مناهجه ، وهو فن إدارة المال ، ولا يخرج التعريف الحديث عن ما ذهبت إليه اللغة ، وأشار إليه القرآن الكريم (القاموس القويم بزيادة اقتضاها المقام) .

(٢) لولا : حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط . وقد تستعمل كأداة عرض وتخصيص مثل (هلاً) فتختص بالدخول على الفعل المضارع في مثل قوله تعالى : ﴿ .. لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) ﴾ [النمل] وتدخل على الفعل الماضي الذي في تأويل المضارع مثل قوله تعالى : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ .. (١٢) ﴾ [هود] أي : لولا ينزل عليه كنز . وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] أي : لولا تؤخرني . [القاموس القويم] بتصرف .

وإن نزل المَلَك على هيئة رجل فكيف يتعرَّفون إلى أصله كمَلَك ؟ وهذا غباء فى الطلب .

وأيضاً قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

ولو أنزله الحق سبحانه مَلَكاً فسوف يكون من نفس طبيعتهم البشرية ، وسوف يلتقى بهم ويتكلم معهم ، ولن يستطيعوا تمييزه عن بقية الناس وسوف يكذِّبونه أيضاً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه رَدًّا لهم عن هذا الطلب : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ[1] .. (١٢) ﴾ [هود]

وهذا الكلام موجَّه من الله سبحانه للرسول ﷺ ليُلقِّنه الحجة التى يرد بها عليهم ، وقد قال لهم الرسول ﷺ عن نفسه إنه نذير وبشير ، وقد طلب غيركم الآيات ، وحين جاءت الآيات التى طلبوها لم يؤمنوا ، بل ظلُّوا على تكذيبهم ؛ فنكَّل الحق سبحانه بهم[2] .

إذن : فالعناد بالكفر لا ينقلب إلى إيمان بمجرد نزول الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

---

(١) النذير : الرسول المُنذر بالعذاب . قال تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ .. (٦٣) ﴾ [الأعراف] .

(٢) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام] .

أى : أن الآيات التى طلبها الكافرون لم يأت بها الله سبحانه ؛ لأن الأولين قد كذَّبوا بها ؛ ولذلك يبلغ الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا بقوله :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [هود]

وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالنذارة والبشارة [1] .

وينهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ .. وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود]

وأنت حين توكِّل إنساناً فى البيع والشراء والهبَة والنَّقل ، وله حرية التصرف فى كل ما يخصك ، وترقب سلوكه وتصرُّفه ، فإنْ أعجبك ظللتَ على تمسكك بتوكيله عنك ، وإن لم يعجبك تصرُّفه فأنت تُلْغى الوكالة ، هذا فى المجال البشرى ، أما وكالة الله سبحانه وتعالى على الخَلْق [2] فهى باقية أبداً ، وإن أبى الكافرون منهم .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ [3] قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

وفى قول الحق سبحانه وتعالى هنا بيان للَوْن آخر من مصادمة الكافرين لمنهج رسول الله ﷺ والإيمان به ، فقالوا : إن مَحمداً قد افترى القرآن .

---

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. ﴿١١٩﴾ ﴾ [البقرة]

(٢) الوكيل : الحافظ الأمين والناصر والمعين . قال تعالى : ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران] ، فوكالة الله على خلقه أى : رعايتهم بالرزق والحفظ والنصرة .

(٣) الافتراء : اختلاق الكذب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [هود] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [هود] أى : مكذوبات كما تدَّعون . [القاموس القويم] .

والافتراء : هو الكذب المتعمَّد ، ومعنى الكذب المتعمد أنه كلام يخالف واقعاً فى الكون .

فإذا كان الواقع نَفْياً وأنت قلت قضيةَ إثبات ؛ تكون قد خالفت الواقع ، كأن يُوجد فى الكون شرٌ ما ثم تقول أنت : لا يوجد شرٌ فى هذا المكان، وهكذا يكون الواقع إيجاباً والكلام نفْياً .

وكذلك أن يكون فى الواقع نَفْىٌ وفى الكلام إيجابٌ ، فهذا أيضاً كذبٌ ؛ لأن الصدق هو أن تتوافق القضية الكلامية مع الواقع الكونى ، فإن اختلفتْ مع الواقع الكونى صار الكلام كذباً .

والكذب نوعان : نوع متعمد ، ونوع غير متعمد . والكذب خرق واقع واختلاق غير موجود . ويقال : خرقت الشىء أى : أنك أتيت لواقع وبدَّلت فيه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَخَرَقُوا (١) لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٠٠) ﴾ [الأنعام]

ويقول أيضاً الحق سبحانه :

﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا (٢) .. (١٧) ﴾ [العنكبوت]

أى : تأتون بشىء من عدم ، وهو من عندكم فقط .

ويقول الله سبحانه تعالى :

---

(١) خرق الأمر أو الكلام : كذبه واخترعه . قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أى : نسبوا له بنين وبنات كذباً واختراعاً بغير علم . [المعجم الوسيط] .

(٢) الإفك : الكذب والافتراء الباطل . وقال تعالى : ﴿ .. وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾ [الأحقاف] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ .. (١١) ﴾ [النور] .

﴿.. وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١) (١١٦)﴾ [الأنعام]

وحين اتهموا محمداً ﷺ بهتاناً بأنه افترى القرآن جاء الرد من القرآن الكريم بمنتهى البساطة ، فأنتم - معشر العرب - أهل فصاحة وبلاغة ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس ونوع نُبوغكم ، وما دمتم قد قُلْتم: إن محمداً قد افترى القرآن ، وأن آيات القرآن ليست من عند الله، فلماذا لا تفترون مثله ؟

وما دام الافتراء أمراً سهلاً بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشْر سور منه ؟ وأنتم قد عشْتم مع محمد منذ صغَره ، ولم يكن له شعْر ، ولا نثر ، ولا خطابة ، ولا علاقة له برياضَاتكم اللغوية ، ولم يزاول الشعر أو الخطابة ، ولم يشترك في أسواق البلاغة والشعر التى كانت تُعقد فى الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان مَنْ لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة ، قد جاء بهذا القرآن ؛ فَلْيكُنْ لديكم - وأنتم أهل قُدْرة ودُرْبة ورياضة على البلاغة أن تأتوا ببعض من مثله ، وإن كان قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون مثله ؟

وأنتم تعرفون المعارضات التى تُقام فى أسواق البلاغة عندكم ، حين يقول شاعر قصيدة ، فيدخل معه شاعر آخر فى مباراة ليلقى قصيدة أفضل من قصيدة الشاعر الأول ، ثم تُعقد لجان تحكيم تُبيِّن مظاهر الحُسْن ومظاهر السوء فى أى قصيدة .

ولو كان محمدٌ ﷺ قد افترى القرآن -كما تقولون- فأين أنتم؟ ألم تعرفوه منذ طفولته ؟ ولذلك يأمر الحق سبحانه رسول الله ﷺ أن يقول :

---

(١) يخرصون : يكذبون . ويستعمل الخرْص فى القرآن بمعنى الكذب أو الظن الخاطىء . قال تعالى : ﴿.. وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾ [الأنعام] أى : يكذبون أو يُخمِّنون ويظنون ولا يعلمون حقيقة الأمر على سبيل اليقين . [القاموس القويم - ١/ ١٩١]

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ [1] فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

فهل أثر عن محمد ﷺ أنه قال شعراً أو ألقى خطبة أو تبارى [2] في عكاظ [3] أو المربد أو ذي المجاز [4] أو المجنة [5] ، وتلك هي أسواق البلاغة ومهرجاناتها في تلك الأيام ؟

هو لم يذهب إلى تلك الأماكن منافساً أو قائلاً .

إذن : أفليسَ الذين تنافسوا هناك أقدر منه على الافتراء ؟ ألم يكن امرؤ القيس شاعراً فَحْلاً ؟ لقد كان ، وكان له نظير يعارضه .

وكذلك كان عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حِلِّزة اليشكُري ، كما جاء في عصور تالية آخرون مثل : جرير والفرزدق .

إذن : فأنتم تعرفون مَنْ يقولون الشعر ومَنْ يعارضونهم من أمثالهم من الشعراء .

إذن : فهاتوا مَنْ يفترى مثل سور القرآن ، فإنْ لم تفتروا ، فمعنى ذلك أن القرآن ليس افتراء .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

---

(١) لبث : أقام واستقر . وقال تعالى عن يونس عليه السلام : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات] . وقال سبحانه عن نوح عليه السلام : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤)﴾ [العنكبوت] . وقال تعالى : ﴿.. فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠)﴾ [طه] .

(٢) التباري : التنافس والتسابق .

(٣) سوق عكاظ : سوق بقرب مكة ، كان العرب يجتمعون بها كل سنة ، فيقيمون شهراً يبتاعون ويتفاخرون ويتناشدون ، وسميت عكاظًا لهذا ، ويقال : تعاكظ القوم : تعاركوا وتفاخروا [انظر لسان العرب - مادة عكظ]

(٤) ذو المجاز : موضع بمِنىً - وقيل عند عرفات - كان يُقام فيه سوق في الجاهلية . [اللسان مادة : جوز]

(٥) المجنة : موضع على بُعْد أميال من مكة ، كان بها سوق من أسواق العرب .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ..(١٣) ﴾ [هود]

فهل كانوا قادرين على قبول التحدى ، بأنْ يأتوا بعشر سُوَر من مثل القرآن الكريم فى البيان الآسر [1] وقوة الفصاحة وأسرار المعانى ؟

لقد تحدَّاهم بأن يأتوا - أولاً - بمثل القرآن [2] ، فلم يستطيعوا ، ثم تحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور ، فلم يستطيعوا ، وتحدَّاهم بأن يأتوا بسورة [3] ، ثم تحدَّى أن يأتوا ولو بحديث مثله ، فلم يستطيعوا .

وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدى ، وهو أنْ يأتوا بعَشْر سُور ، ولم يكتف الحق سبحانه بذلك ، بل طالبهم أن يَدْعُوا مَجْمَعاً من البُلَغَاء ، فقال سبحانه :

﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ..(١٣) ﴾ [هود]

أى : هاتوا كلَّ شركائكم وكل البُلغاء ، من دون الله تعالى .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقطع عليهم فرصة الادّعاء عليه سبحانه حتى لا يقولوا : سوف ندعو الله ؛ ولذلك طالبهم الحق سبحانه أن يُجنِّبوه ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾ [هود]

أى : إن كنتم صادقين فى أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن [4] ، وبما أنكم

(١) الآسر : الذى يأخذ بألباب الناس وعقولهم .

(٢) وذلك فى قول الله سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء] أى : مُعِيناً .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة] . ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ [يونس] .

(٤) القرآن : يطلق على كتاب الله المعجز ، المكتوب فى المصاحف ، الذى نزل على رسول الله ﷺ ، ويطلق مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية على الصلاة ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء] أى : صلاة الفجر (القاموس القويم باختصار) .